

تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاء

رسالةٌ مفتوحةٌ للجبهةِ السلفيةِ وغيرهم

للشيخ

أبي حاتم محمد بن كمال السيوطي

تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ

رسالةٌ مفتوحةٌ للجبهةِ السلفيةِ وغيرهم

(٣)

واعلم أن كثيراً من الناسِ إنما يقدِّمون الرأيَ على النصِّ ، لأنهم يعتقدونَ أنَّ الهدى ينبغي أنْ يكونَ على صفةٍ مُعينةٍ ، فإذا جاءتْ النصوصُ على خلافِ هذا صعُب عليهم الانقيادُ لها ، وذهبوا يتلمَّسون بعضَ النصوص ليعارضوا بها ما صحَّ به الخبرُ عن الله ورسوله وبانَ المرادُ منه ، وهم في هذا يظنونَ أنهم يتَّبعونَ النصوصَ ، وليس الأمرُ هكذا ، إنما هم يتَّبعون ما رأوا أنه الهُدى ، فهم لم يجعلوا كلامَ الله ورسولَه أصلاً يحاولون فَهمَ المرادِ منه ، والعملَ به ، تاركين كلَّ ما يعارضه ، إنما هم جعلوا آراءهم أصلا يتَّبعونه ، وذهبوا ينصرونها بكلِّ وسيلةٍ ممكنةٍ ، فإذا رأو في بعضِ النصوص ما في ظاهرِهِ تأييدٌ لما يذهبون إليهِ فزَعُوا إلى النصوصِ ، لا فزعَ المستسلمِ المنقادِ لربه ، ولنبيه ، المتِّبعِ للنصوصِ مهما ذهبتْ به ولكنْ فزعَ الذين قال الله عز وجل عنهم : {وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) } ومن أمثلةِ ذلك ما وقعَ في وَحْله طوائفُ من بني آدم حيثُ ذهبوا يُحكِّمون عقولَهم وآراءهم في ربهم : في أسمائهِ وصفاتهِ وأفعالهِ ، فذهبوا يُوجبون له وينفُونَ عنه من الأسماءِ والصفاتِ ما رأوا هم أنه الهُدى والصوابُ ، دونَ ما أخبرهم به ربُّهم عن نفسهِ وأسمائهِ وصفاتهِ ، فإذا وجدوا في ظاهرِ بعض النصوصِ

ما يوافق ما اختاروه لربهم بعقولهم ، فزَعُوا إلى النصوصِ ، ذرًّا للرَّمادِ في العيونِ وتلبيساً على العامةِ ، موهمينهم أنهم ذهبوا هذا المذهبَ متبعينَ فيه النصوصَ الشرعيةَ ، وهم في الحقيقةِ إنما ألقوا النصوصَ وراءهم ظِهرِّيا

فهم لما حكَّموا آراءَهم في ربهم ، ورأوا أنه لا يجبُ أن يكونَ مستوياً على عرشهِ بائناً من خلقه ، عالياً عليهم ، لأنَّ هذا يوجبُ نقصا بزعمهم ، وأن الهُدى أنْ يكونَ في كل مكانٍ بذاته ، لم يلتفتوا إلى النصوصِ الكثيرةِ ، المتواترةِ ، المترادفةِ في بيانِ عُلوِّ الله على خلقهِ ، واستوائهِ على عرشهِ ، ورأوا في ظاهرِ بعضِ النصوصِ ما يدلُّ على ما ذهبوا إليه كمثلِ قوله تعالى : { وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ } وقوله : { مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا } فرفعوا رايةَ هذه النصوصِ تمويهاً على الناسِ ، وإيهاماً لهم أنهم ذهبُوا إلى ما ذهبُوا إليه اتِّباعا لهذه النصوصِ ، وهم يعلمون أنَّ الأمرَ ليسَ كذلكَ ، وأنهم اتَّبعوا ما استحسنتْه عقولُهم ، أو ابتدعتْه شيوخُهم ، وأنهم تركوا النصوصَ الصريحةَ ، الواضحةَ ، البيِّنةَ على خلافِ ما يقولونَ كمثلِ قوله تعالى { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } وكمثلِ قولِه تعالى {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ}وقوله : { يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ } إلى غيرِ ذلكَ من النصوصِ الكثيرةِ حتى قالَ بعضُ كبارِ الشافعيةِ : (في القرآنِ ألفُ دليلٍ على العلو) ذكره شيخ الإسلامِ في مجموعِ الفتاوى

ومن أمثلةِ ذلك وأعجبهِ أنهم لما حكَّموا آرائهم في ربهم ـ كما تقدم ذكرُه ـ ورأوا أن الهُدى بمقتضى عقولهم يَقضي أنَّ ربهم لا يُرى في الآخرة ، لأنه لا يُرى إلا الجسم

وربُّهم منزهٌ عن هذا كلِّه ، تركوا نصَّ ربهم الذي يُصرِّحُ فيه ، ويخبرُ عن نفسه أنه يُرى في الآخرةِ وهو قوله : {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} وتركوا قولَ أعلمِ الناس به ـ وهو نبيُّه ومُصطفاهُ الصادقُ المصدوقُ ـ مع صراحةِ اللفظِ ، ووضوحِ العبارةِ حين يقولُ كما في الصحيحينِ وغيرِهم : (إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ ، كَمَا تَرَوْنَ هَذَا القَمَرَ ، لاَ تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِه) ووجدوا في بعضِ المنقولِ عن مجاهدٍ في تأويلِ قوله تعالى : {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} قال : (تنتظرُ ثوابَ ربها) وظنُّوا أنه يدلُّ على ما ذهبوا إليه من نفي الرؤيةِ ، رأوا أنهم قد وجدوا بُغْيتهم في الاحتجاجِ بالآثار فيما ذهبوا إليه ، فصاروا يُظهرون هذا النصَّ تمويها على الناسِ ، وإيهاما لهم أنهم متبعون للسلفِ الصالحِ ، وهم يعلمون أنهم يتبعون أهوائهم وآرائهم ، وأنهم قد تركوا من النصوصِ الصحيحةِ الصريحةِ من كلامِ اللهِ ، وكلامِ رسولهِ صلى الله عليه وسلم ، وكلامِ السلفِ الصالحِ ما ينقضُ ما يذهبونَ إليه من هذه البدعةِ الضالةِ المُضلِّةِ ، قالَ الإمامُ الدارمي في الردِّ على الجهميةِ : (واحتجَّ محتجٌّ منهم بقول مجاهدٍ : { وجوهٌ يومئذٍ ناضرةٌ إلى ربِّها ناظرةٌ} قال: (تنتظر ثوابَ ربها) قلنا : نعمْ تنتظرُ ثوابَ ربها ولا ثوابَ أعظمَ من النظرِ إلى وجههِ تبارك وتعالى ، فإن أبيتمْ إلا تعلُّقاً بحديثِ مجاهدٍ هذا واحتجاجاً به دونَ ما سواه من الآثارِ فهذا آيةُ شذوذِكم عن الحقِّ واتباعكم الباطلَ لأنَّ دعواكم هذه لو صحَّتْ عن مجاهدٍ على المعنى الذي تذهبون إليه كانَ مدحُوضاً القولُ إليه مع هذه الآثارِ التي قد صحَّت فيه عن رسول الله وأصحابهِ وجماعةِ التابعين ، أولستم قد زعمتم أنكم لا تقبلون هذه الآثارَ ، ولا تحتجون بها فكيفَ

تحتجونَ بالأثرِ عن مجاهدٍ إذ وجدتم سبيلا إلى التعلقِ به لباطلِكم على غير بيانٍ وتركتم آثارَ رسولِ الله وأصحابهِ والتابعينَ إذ خالفتْ مذهبَكم ، فأمَّا إذْ أقررتم بقبولِ الأثرِ عن مجاهدٍ ، فقد حكَمتم على أنفسِكم بقبولِ آثارِ رسولِ الله وأصحابهِ والتابعينَ بعدهم ، لأنكم لم تسمعوا هذا عن مجاهدٍ بل تأثُرونه عنه بإسنادٍ وتأثُرونَ بأسانيدَ مثلِها أو أجودَ منها عن رسولِ اللهِ أصحابهِ والتابعينَ ما هو خلافُه عندكم فكيف ألزمتم أنفسَكم اتِّباعَ المشتبهَ من آثار مجاهدٍ وحدَه وتركتم الصحيحَ المنصوصَ من آثارِ رسولِ اللهِ وأصحابهِ)

ومن أمثلة هذا أيضا ما نحن فيه ، أنَّ طوائفَ من الناس رأوا أنَّ الهُدى في عدمِ إقرارِ الولاةِ الظلمةِ الجائرينَ ، وأنَّ الحقَّ في منازعتهم والخروجِ عليهم ، ورأوا في ظواهرِ بعضِ النصوصِ ما يدلُّ على ما ذهبوا إليه من منازعةِ الحكامِ كمثلِ قوله تعالى : {وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّار } وكمثلِ قولِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم كما في سننِ أبي داودَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ ، أَوْ أَمِيرٍ جَائِرٍ) فتركوا من النصوصِ الصريحةِ الصحيحةِ في النهي عن الخروجِ عليهم ـ ولو كانوا ظلمةً جائرينَ ـ ما قد مرَّ بك بعضُه ، ويكفى في هذا ما رواه مسلمٌ في صحيحه من حديثِ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قيلَ له : (أَفَلَا نُقَاتِلُهُمْ ؟ قَالَ : لَا ، مَا صَلَّوْا)

وتركوا المنقولَ عن السلفِ في تفسيرِ الركونِ إلى الظلمةِ ، وأنَ حقيقةَ الركونِ كما ذكره البغوي في تفسيرِه هي : (المحبةُ والميلُ بالقلبِ) فالآيةُ نهيٌ عن محبةِ

الظلمةِ ، أو الرضي بأعمالهم ، أو الاستعانةِ بهم مع القدرةِ ، ففرقٌ بين النهي عن محبةِ الظلمةِ ، وبين الخروجِ عليهم ، وفرقٌ بين عُموم الظلمةِ ، وخصوصِ الحكامِ منهم ، وأما الحديثُ فليس فيما ذهبوا إليه في وِردٍ ، ولا صَدرٍ[١] ، لأن الحديثَ نصٌ في جوازِ أن يقولَ المرءُ للسلطانِ كلمةَ الحقِّ ، وفرقٌ بين أن تقولَ له : (اتقِّ الله) أو تقول له :(اعدلْ) وبينَ أن تقول له : (انزعْ نفسك) وقد اشترطَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم لتكون هذه الكلمةُ جهاداً أن تكونَ (كلمةً) لا (قُنبلةً) وأن تكونَ (عندَ السلطانِ) تكلمه كفاحا وجهاً لوجهٍ ، وليس في الميادينِ ، والساحاتِ العامة ، فهذه الكلمةُ هي مثلُ ما خرَّجه مسلمٌ في صحيحه عن طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ قَالَ : (أَوَّلُ مَنْ بَدَأَ بِالْخُطْبَةِ يَوْمَ الْعِيدِ قَبْلَ الصَّلَاةِ مَرْوَانُ . فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ : الصَّلَاةُ قَبْلَ الْخُطْبَةِ ، فَقَالَ : قَدْ تُرِكَ مَا هُنَالِكَ ، فَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ: أَمَّا هَذَا فَقَدْ قَضَى مَا عَلَيْه) وكمثلِ ما ذكره الذهبيُّ في السِّيرِ في ترجمةِ ابنِ أبي ذئب : قالَ : (قَالَ أَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ : ابْنُ أَبِي ذِئْبٍ ثِقَةٌ قَدْ دَخَلَ عَلَى أَبِي جَعْفَرٍ المَنْصُوْرِ ، فَلَمْ يَهُلْهُ أَنْ قَالَ لَهُ الحَقَّ ، وَقَالَ : الظُّلْمُ بِبَابِكَ فَاشٍ ، وَأَبُو جَعْفَرٍ أَبُو جَعْفَرٍ) فهذه هي الكلمةُ المرادةُ مثل قولِ الرجلِ لمروانَ (الصلاةُ قبل الخطبةِ) وكمثلِ قولِ ابنِ أبي ذئب لأبي جعفرٍ (الظلمُ ببابك فاشٍ) فهي كلمةٌ ليستْ إلا ، ومع أن الحاكمَ في الحالتين لم يستجبْ لهذه الكلمةِ ، ولكنْ انتهت الكلمةُ ، ووسعَ الرجلين السكوتُ بعدها ، وقد قالَ أبو سعيد الخدري رضي الله عنه :(أَمَّا هَذَا فَقَدْ قَضَى مَا عَلَيْه) ولكنَّ هؤلاءِ لا يرضون أن تكون كلمةً يعقبها سكوتٌ ، ولا

[١] هذا لو صح فقد غمزه الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم

يرضون بحكمِ أبي سعيد رضي الله عنه ، بل يوجبون إلزامَ الحاكمِ أن يفعلَ ما يريدون ، ولو حملوه على هذا بالنارِ والحديدِ ، وهذا قدرٌ زائدٌ عما في الحديثِ

وينبغي هنا ملاحظةُ أمرينِ دقيقينِ :

الأول : أنَّ الصحابيَّ الذي روى حديثَ (أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ) هو أبو سعيدٍ الخدريِّ رضي الله عنه ، وهو الذي رأى كلمةَ الرجلِ لمروانَ وقال : (أَمَّا هَذَا فَقَدْ قَضَى مَا عَلَيْه) فيكون الذي رآه ، شرحٌ لما رواه ، وأنَّ كلمةَ الجهادِ ليستْ مُنازعةً للحاكمِ ، ولا مُقاتَلةً له ، وبذا تجتمعُ النصوصُ وتأتلفُ ، ولا تتنافرُ وتختلفُ

الثاني : أنَّ الإمامَ أحمدَ الذي مدحَ ابنَ أبي ذئب بما قاله لأبي جعفرٍ المنصور ، هو الذي قالَ في رسالتهِ في أصولِ السنةِ : (ولا يحلُّ قتالُ السلطانِ ولا الخروجُ عليه لأحدٍ من الناسِ فمن فعلَ ذلك فهو مبتدعٌ على غير السنةِ) فهذا يعني أنَّ الذي مدحَ ابنَ أبي ذئب به ، ليس هو المنازعةُ والقتالُ الذي حكمَ عليه بأنه بدعةٌ ، وأن صاحبَه مبتدعٌ ، أم تراه مدحه بفعلِ البدعةِ ؟!

فالحذرَ الحذرَ أن يكونَ للمرءِ (حكمٌ ما) على مسألةٍ بأنَّ الهدى بهذه الصفةِ ، قبلَ أن يرجعِ إلى النصوصِ ويفهمَها فهماً صحيحاً ، ثم إذا بانَ له أن النصوصَ على خلافِ ما رأى أنه الهدى ، أو خلافِ ما فهمه من النصوصِ ، ذهبَ يتلمَّسُ كلَّ كلمةٍ تؤيدُ ما ذهبَ إليه ، أو ربما يطعنُ في النصوصِ طعناً صريحاً ، ولا تستبعدنَّ أن يقعَ في هذا بعضُ الكبارِ ، فإنَّ الهُدى هدى الله ، واعتبرْ بما في الصحيحينِ في قصةِ الأنصاري مع الزبيرِ رضي الله عنه ـ وقد مرَّت بك ـ كيفَ أنَّ

الأنصاريَّ لما كان يرى مُسبَقا أنَّ الهدى : أنْ يَسقيَ هو أولا ثم الزبير ، ثم فَجأَهُ حكمُ النبي صلى الله عليه وسلم بخلافِ هذا ، فلم يستطعْ أن يُذعن للحكمِ ، ولا أن يُسلِّمَ له ، بل طعنَ في النبيِّ صلى الله عليه وسلم وفي حكمهِ قائلا (أنْ كانَ ابنَ عمتِكَ) أي حكمتَ بهذا محاباةً له لقرابته منكَ ـ ويا ويح ما قالَ ! ! ـ

ثم تأملْ كيفَ استطاعَ أنَ ينطقَ بهذا في وجهِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم كِفاحا بلا حياءٍ ، أو وجل ! ! فإن كانَ قدَرَ على هذا ، فإنَّ قُدرةَ غيرهِ في الطعنِ في نصوصِ تحريمِ الخروجِ ، والطعنِ في حامليها بأنهم خدمُ السلطانِ وعملاؤُه ، يصبح أيسرَ من هذا بكثيرٍ

فإنْ كنتَ ـ أيْ عبدَ الله ـ ممن يرى مُسبقا جوازَ منازعةِ الحكامِ الظلمةِ والخروجِ عليهم ، فاحذرْ أنْ ترى النصوصَ على خلافِ ما اعتقدتْ ، فتذهبُ تطعنُ فيها ، وفي حامليها ، كما فعلَ ذاكَ الرجلُ ، بل وطِّن نفسَك على حملها على ما قضتْ به الشريعةُ ـ وإن كانَ على خلافِ هواكَ ـ واذكرْ قصةً جليلةً وقعتْ للصحابةِ رضي الله عنهم في صلحِ الحديبيةِ ، وانظرْ إلى الشروطِ التي قبلها النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، وانظرْ فعلَ أصحابه على ما رواه صاحبُ الصحيحِ ، وكانَ من الشروط : (وَعَلَى أَنَّهُ لاَ يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ إِلَّا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا ، قَالَ الْمُسْلِمُونَ: سُبْحَانَ اللَّهِ ، كَيْفَ يُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جَاءَ مُسْلِمًا ؟ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ دَخَلَ أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو يَرْسُفُ فِي قُيُودِهِ ، وَقَدْ خَرَجَ مِنْ أَسْفَلِ مَكَّةَ حَتَّى رَمَى بِنَفْسِهِ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُسْلِمِينَ ، فَقَالَ سُهَيْلٌ : هَذَا يَا مُحَمَّدُ أَوَّلُ مَا أُقَاضِيكَ عَلَيْهِ أَنْ تَرُدَّهُ إِلَيَّ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّا لَمْ نَقْضِ

الكِتَابَ بَعْدُ قَالَ: فَوَاللَّهِ إِذًا لَمْ أُصَالِحْكَ عَلَى شَيْءٍ أَبَدًا ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : فَأَجِزْهُ لِي قَالَ : مَا أَنَا بِمُجِيزِهِ لَكَ ، قَالَ : بَلَى فَافْعَلْ ، قَالَ: مَا أَنَا بِفَاعِلٍ، قَالَ مِكْرَزٌ : بَلْ قَدْ أَجَزْنَاهُ لَكَ ، قَالَ أَبُو جَنْدَلٍ : أَيْ مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ، أُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جِئْتُ مُسْلِمًا ، أَلاَ تَرَوْنَ مَا قَدْ لَقِيتُ ؟ وَكَانَ قَدْ عُذِّبَ عَذَابًا شَدِيدًا فِي اللَّهِ ، قَالَ : فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ : فَأَتَيْتُ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ : أَلَسْتَ نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا ؟ قَالَ : بَلَى ، قُلْتُ : أَلَسْنَا عَلَى الحَقِّ ، وَعَدُوُّنَا عَلَى البَاطِلِ ؟ قَالَ : بَلَى ، قُلْتُ : فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا ؟ قَالَ: إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ ، وَلَسْتُ أَعْصِيهِ ، وَهُوَ نَاصِرِي ، قُلْتُ: أَوَلَيْسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي البَيْتَ فَنَطُوفُ بِهِ ؟ قَالَ : بَلَى، فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ العَامَ ، قَالَ: قُلْتُ: لاَ ، قَالَ: فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ ، قَالَ: فَأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ فَقُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَيْسَ هَذَا نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا ؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى البَاطِلِ ؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا ؟ قَالَ: أَيُّهَا الرَّجُلُ إِنَّهُ لَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ، وَهُوَ نَاصِرُهُ، فَاسْتَمْسِكْ بِغَرْزِهِ ، فَوَاللَّهِ إِنَّهُ عَلَى الحَقِّ، قُلْتُ : أَلَيْسَ كَانَ يُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي البَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ ؟ قَالَ: بَلَى ، أَفَأَخْبَرَكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ العَامَ ؟ قُلْتُ: لاَ ، قَالَ: فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ، – قَالَ الزُّهْرِيُّ: قَالَ عُمَرُ –: فَعَمِلْتُ لِذَلِكَ أَعْمَالًا)

فتدبَّرْ هذا الحديثَ تراه جليلَ القدرِ عظيمَ الفائدةِ

فأولا : لما قالَ سهيلُ بن عمرو للنبي صلى الله عليه وسلم : (وَعَلَى أَنَّهُ لاَ يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ إِلَّا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا) صعُبَ هذا على أصحابِ النبي

صلى الله عليه وسلم فقالوا :(سُبْحَانَ اللَّهِ ، كَيْفَ يُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جَاءَ مُسْلِمًا ؟) وما ذاكَ إلا لأنهم رأَوا أولاً بعقولهم ، أنَّ الصوابَ ألا يُردَّ إلى المشركينَ من جاءَ مسلما ، فلما رأوا مُسبقا أنَّ الهدي في أمرٍ معينٍ ، صعُبَ عليهم تمامُ التسليمِ للنبي صلى الله عليه وسلم لما جاءَ حكمه على خلافِ ما رأوا ، ولا سيما لما رأوا أمرَ أبي جندلِ بنِ سهيلِ بن عمرو رضي الله عنهما وأن النبي صلى الله عليه وسلم ردَّه إلى المشركين

وثانيا : أنَّ ممن أشكلَ عليه هذا الحكمُ جداً هو عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه ـ وهو من هو ـ فما بالك بمن دونه ؟

ثالثا : أنَّ عمرَ بنِ الخطابِ رضي الله عنه أشكلَ عليه حديثُ النبي صلى الله عليه وسلم الذي حدَّثهم به أنهم (سيأتونَ البيت ويطوفونَ به) وظنَّ أن هذا الحديثَ يؤيد ما ذهبَ إليه هو ، ونسي ـ رضي الله عنه ـ أنَّ الذي حدثه بهذا هو الذي أجرى هذا الصلحَ ، وهو صلى الله عليه وسلم لا يتناقضُ ، ولا يقضي بخلافِ الهدي قط ، فلابدَّ أن يكونَ هو أخطأ في فهمِ الحديثِ ، وأنه لو تأمَّلَ الحديثَ على ضوءِ الصلحِ الذي وقعَ ، لعلم ألا تعارُضَ بينهم ، وقد بيَّنَ هذا له النبيُّ صلى الله عليه وسلم لما قالَ له : (أَوَلَيْسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي البَيْتَ فَنَطُوفُ بِهِ ؟ قَالَ : بَلَى، فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ العَامَ ، قَالَ: قُلْتُ: لاَ، قَالَ: فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ)

فأنت إذا أشكلَ عليكَ حديثُ (أفضلُ الجهادِ ..) وظننتَ أنه يدلُّ على جوازِ منازعةِ الحكامِ ، أو رأيتَ بعضَ المعظَّمينَ عندكَ يحتجُّ به على جوازِ المنازعةِ ،

فاذكرْ هذه القصةَ ، واعلمْ أنك قبلتَ أنَّ عمر رضي الله عنه قد أشكلَ عليه بعضُ كلامِ النبي صلى الله عليه وسلم ، فما بالُك لا تقبلُ أنه قد يشكلُ عليك أو علي شيخِكَ بعضٌ آخرُ من كلامِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، واعلم أنَّ الذي قال (أفضلُ الجهادِ) هو الذي نهي عن منازعتِهم ، ولو تدبرتَ لوجدت الحديثين يأتلفانِ ، ولا يختلفانِ ، ويتوافقانِ ، ولا يتعارضانِ

رابعا : أنْ تتأمَّلَ جوابَ النبي صلى الله عليه وسلم (إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ ، وَلَسْتُ أَعْصِيهِ ، وَهُوَ نَاصِرِي) وهو نفسُ ما أجابَ به أبو بكرٍ رضي الله عنه عمرَ بن الخطاب ، فإنكَ إذا فعلتَ هذا ، رأيتَ فيه الهُدى تمامَ الهُدى فقوله : (إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ) إشارة إلى أنه لا يفعلُ إلا ما يُوحى إليه ، فلا يقولُ ويفعلُ إلا مِن قبلِ الوحي ، وليسَ مِن قبلِ الرأي أو القياسِ ، وقوله : (وَلَسْتُ أَعْصِيهِ) إشارةٌ إلى أنه لا يحلُّ له ، ولا لغيرِه أنْ يعصيَ اللهَ ربَّ العالمين ، سواءٌ بَدا له وجهُ الحكمةِ فيما أوحي إليه ، أم لا ، فهو محضُ عبدٍ لا يفعلُ إلا ما أُمر به

وقوله :(وَهُوَ نَاصِرِي) إشارةٌ إلى أسبابِ النصرِ ، وأنَّ النصرَ لا يكون إلا بتركِ معصيةِ الله عز وجل ، وفعلِ ما أَمر به (ولو لم يظهرْ لنا الوجهُ فيه) أمَّا مَن عصى الأمرَ ، ورامَ النصر ، فهذا كالذي يريدُ أنْ يطيرَ ، وقد قصَّ جناحاه فأني له ذلك ؟!

خامسا : أنه قد وقعَ من النصر بسببِ هذا الصلحِ ما سمَّاه الله عز وجل فتحاً مُبيناً، وأنزلَ فيه صدرَ سورةِ الفتحِ ، وعلمَ أصحابُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّ التسليمَ الكاملَ المطلقَ (ولو لم يظهر الوجهُ فيه) هو الحقُّ الكاملُ ، وأنَّ الرأيَ

مذمومٌ كلُّه مهما كانَ صاحبه جليلاً ، ولذا قال سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ رضي الله عنه : (اتَّهِمُوا الرَّأْيَ، فَلَقَدْ رَأَيْتُنِي يَوْمَ أَبِي جَنْدَلٍ وَلَوْ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَرُدَّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمْرَهُ لَرَدَدْتُ ، وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَم) أي واللهُ ورسولُه أعلمُ بما يأمرانِ بهِ ، أو ينهيانِ عنه ، فالزمْ غرْزَهما

فأنتَ ـ أيْ عبدَ الله ـ لعلك ترى أنَّ في تحريمِ الخروجِ على أئمةِ الجورِ ، وفي الصبرِ عليهم من التمكينِ لهم ولظلمهم وفسادِهم ، ولعلك تعلمُ بعضَ ما قضى به الحاكم من الظلمِ ، أو الفسادِ ، لا سيما إذا كانَ الظلمُ واقعاً عليك ، أو على شيخِكَ ، أو جماعتكَ ، أو عشيرتكَ ، فيشقُّ عليك حينئذٍ أنْ تُسلِّمَ لهذه النصوصِ كما قالَ أبو الطيب المتنبي

واحتِمالُ الأذَى ورُؤيَةُ جانِبِـ ـهِ غِذاءٌ تَضْوَى بهِ الأجسامُ

فلو كنتَ كذلكَ فاذكرْ قصةَ أبي جندلٍ وصلحِ الحديبيةِ ، وما جرى لأصحابِ النبي صلى الله عليه وسلم ، وكيفَ رأوا أنَّ قبولَ هذا الصلحَ مِن إعطاءِ الدَّنيةِ في الدِّينِ ثم بانَ لنا ولهم أنه الحقُّ المُبينُ ، والصراطُ المستقيمُ ، فاختر لنفسك ما اختارَه لك سهلُ بنُ حنيفٍ رضي الله عنه ـ فيما مرَّ بك ـ من اتهامِ الرأي والتسليمِ للنصِّ وتأملْ قولَ عمرٍ رضي الله عنه (فَعَمِلْتُ لِذَلِكَ أَعْمَالًا) فارجعْ إلى ربكَ وكنْ من التائبينَ